نسبة الروايات

بدأ الشك فى نسبة الروايات قبل ظهور طبعتها الثانية فى سنة ١٦٣٢م لأن حصر هذه الروايات فى طبعتها الأولى قد فتح الباب لمراجعة العارفين بها، فاستدركوا ما سقط منها وما أضيف إليها من غيرها، على حسب علمهم بمصادرها، وربما كان منهم من عرف اسم الرواية ولم يشهد تمثيلها، فالتبس عليه الأمر بين الروايات التى ألفها شكسبير بهذا الاسم، وبين الروايات التى سبقتها بأقلام المجهولين أو لمذكورين.

ومن أقدم ما سجل من هذه الشكوك كلمة كتبها إدوارد رافنسكروفت Ravenscroft سنة (١٦٤٠ – ١٦٩٧م) فى مقدمة رواية تيتوس أندرونيكس – وهو اسم رواية تنسب إلى شكسبير – فقال: «إنه ليبدو لى أن اختلاس أعمال الموتى سرقة أكبر إثمًا من سرقة أموالهم، ولا أود أن أرمى بجريمة من هذا القبيل، فلا مناص لى من أن أنبئ القارئ بأن هناك رواية فى مجموعة مستر شكسبير باسم تيتوس أندرونيكس نقلت عنها جزءًا من روايتى، وقد أنبأنى بعض المطلعين على تاريخ المسرح أنها ليست له ولكنها وضعت بقلم مؤلف آخر لتمثيلها، ولم يزد عليها شكسبير غير بعض التنقيحات فى تصوير الشخصيات الهامة، وأرانى جانحًا إلى

قبـول هذا الخبر لأن الرواية أقل أعماله صحة وهضما، وكأنها كوم من النفاية وليست بنية منظمة..».

على أن هذا الشـك القديم يـردده بعد نحو ثلاثة قرون نخبة من النقدة الكفاة فى دراسـة شكسـبير ومنهم الشـاعر المتوَّج فى عصره جون ماسـفيلد Masfeld وهو على شهرته فى قرض الشعر أديب عليم بتاريخ الأدب، له كتاب موجز ألفه عن شكسـبير فقال فيه عن هذه الرواية: «ولا يساورنا الشك فى أن شكسبير كتب قليلا من هذه الرواية، لا ندرى أين ومتى؟ غير أن الشاعر لا يقترف الخطيئة فى حق فنه ما لم تقسـره الضرورة، وما كان شكسبير ليزاول هذا العمل حبًا وكرامة عن طيب خاطر ... ويجوز أن الرواية وصلت إليه بوصاة من مدير مسـرحه وهو يقـول له كلمات بهذا المعنـى: لدينا قطعة رديئـة – جد رديئـة – لولا أنها قد تنجـح وأود أن أعرضها وأبدأ بتوزيع أدوارها توًا. ألا تستطيع أن تعالجها؟ أرجو أن تجتهد فيها اجتهادك، ولو أنشـأت لها كلمات هنا وفقرات هناك عند الحاجة، ومهما يكن من أمر فأرجو أن أتلقاها منك يوم الاثنين».

* * *

ويحيـط الشـك بمسـرحيات أخرى فـى المجموعـة غير هذه المسـرحية، وأشـهرها وأكثرها حظًا من الشـكوك رواية بركليس وروايات هنرى السـادس ورواية هنـرى الثامن ومناظر من مكبث والملك لـير وسمبلين، ويظن فريق من النقاد أن فلتشـر Fletcher

كتب أكثر هنرى الثامن، وأن مارلو Marlowe كتب أكثر هنرى السادس، ويقول أديب مفكر فياض الذهن – هو الشاعر الفيلسوف كولردج – إن فاتحة الروايات على الأقل ليست من قلم شكسبير، ويتناثر القول بمثل هذا عن مناظر من تيمون الأثينى وترويض السليطة والعبرة بالخواتيم وما عداها، وحجتهم فى فروضهم أن مواضع الشك كثيرة الخلط والخلل، وأنها ليست على سواء فى رسم الشخوص، ولا فى تقسيم الفصول، ولا فى سوق الحوادث، أو الشعور بلب الحادث الفاجع والحادث الذى لا يعدو أن يكون واقعة أليمة لا معنى فيها للفجيعة، وأن بعض المناظر فى الروايات – كمنظر جان دارك فى ضراعتها ودفاعها – يهدر القيم الإنسانية التى لم يهدرها شكسبير، وإن كان لا يستهين بما فى طوايا الناس من الشر واللؤم والفساد.

وعلى وجاهة الملاحظات التى توجب هذه الفروض عند نخبة من جلة النقاد، يظل أناس من حذاق القراء مترددين فى تسليم هذه الشكوك يعللون الملاحظات أو المفارقات بالعلل الطبيعية التى تعرض للعبقرية فى أطوار نموها بين عهد البواكير وعهد النضج والاستواء، ولا يصعب عليهم أن ينسبوا تلك المفارقات إلى قلم واحد فى فترة واحدة، لأن العبقرية لم تسلم قط من تفاوت النتاج فى العمل الواحد، ولا من الإسفاف الذى يقابل الارتفاع النادر ويلازمه فى آثار العباقرة من أرفع الطبقات.

ومن أذكى هؤلاء القراء الحذاق وليام بليس Bliss صاحب كتاب «شكسبير الحق» أو الرد على الشراح، وهو يقول فى الفصل الأول منه إن الشراح لم يتفقوا على سطر يجوز أن ينسب إلى شكسبير ولا على سطر لا يجوز أن ينسب إليه، وإن الشاعر لا يؤلف الجيد من كلامه دون الردىء، وإن ردىء الروايات المشكوك فيها أشبه بردىء شكسبير منه بردىء مارلو، وإن عيوب الموضوع أحيانًا تسوق الشاعر إلى عيوب لا فكاك منها ولا حيلة له فيها.

وصفوة آراء هذا القارئ الحاذق فى كتاب زاد على ثلاثمائة صفحة أن شكسبير كتب كل قطعة تبناها، وأنه لا ينفرد بما لوحظ عليه من التفاوت فى أدوار نموه ولا فى دور واحد من حياته، بل يكاد كل مؤلف عظيم أن يخرج منه ثلاثة مؤلفين أو أربعة إذا فصلنا بين أجود ما فيه وأردأ ما فيه، وبين وحى التحليق والإلهام من عمله ووحى الهبوط والتكلف المكدود.

***

إلا أن هذه الشكوك التى أجملناها فيما تقدم تنتهى عند الشك فى نسبة هذه الرواية أو تلك، ونسبة هذا المنظر أو ذاك، وكلها من ملاحظات طائفة من النقاد تدين «أولا» بوجود عمل لا شك فيه صحيح النسبة إلى شكسبير، وتدين«ثانيًا» بعظمة الشاعر وتنزيهه عن العيوب التى يكبرون تلك العظمة أن تنحدر إليها وتنزلق فيها، ويفرقون بين العمل الفج أو المختل الصادر من طبيعة الشاعر والعمل

الـذى ينافر تلك الطبيعة ولا يلائمها، ومحصول نقدهم أن عبقرية شكسبير حقيقية لا شك فيها، وأنها أكبر وأرفع من الروايات التى ينكرون نسبتها إليه.

ولكن ضربًا من الشك غير هذا نجم فى القرن التاسع عشر، وقام على أساس مناقض لأساس كل شك من تلك الشكوك التى تنتهى إلى إنكار بعض المناظر أو بعض الروايات.

وأساس هذا الشك أن الرجل المعروف باسم شكسبير فى التاريخ الصحيح أقل من أن تنسب إليه رواية من روايات المجموعة بجيدها ورديئها على السواء، وأن كل رواية من هذه الروايات أتم وأعلى من أن ينهض بها ذهن شكسبير، بما صح فى التاريخ من دلائل ثقافته ودرايته ومقدمات استعداده.

* * *

وتعزى الحملة على شكسبير حديثًا إلى بواعث بعيدة من تاريخ الأدب وموازين الثقافة:

تعزى إلى نزعة اجتماعية أو سياسـية بلغت غايتها من العنف واللجاجـة خـلال الفترة التى حامـت فيها الشـكوك حول أصالة الأعمال المنسوبة إلى الشـاعر، وهى فترة العراك بين الطبقات على حقـوق الحكم وحقـوق الانتخاب، وما ينطوى فيهـا من نزاع على المزايا والملكات التى يقال إنها تولد مع الإنسان، أو إنها قد تكسب ولكـن بالتعليم والمرانة الطويلة وجريان العادة فى العرف عقبًا بعد

عقب وذريـــة بعد ذرية. وقد كانت المعركة فـــى وجه من وجوهها الماثلة للأبصار والبصائر معركة شكســـبير دون غيره أو قبل غيره. لأنه علـــم العبقرية الأعلى بين القوم، فإذا جـــاز أن ينبت فى غير بيئة الحكم والســـيادة فليســـت مزايا الفكر وملـــكات الفهم حكرًا للعلية ولا لطبقات الحكم والســـيادة، وإذا ســـقط هذا العلم من أيدى الثائرين المطالبين بالحقوق فليس لهم علم سواه يغنى غناه.

ولم يرد هذا الخاطر على الأفكار فى العصر الحديث بغير مسوغ يوحيه، بعد تجدد المعركة فى القرن العشـــرين على نطاق أوسع من نطاقهـــا فى القرن الثامن عشـــر، بل كانت له مســـوغات كثيرة من موافقات الأحوال ومن مجـــرى الحوادث ومن مضامين الحملة على شكســـبير، ومنها أن المتشـــككين فى أصالته كانوا ينتهون دائمًا إلى نسبة أعماله إلى رجل من العلية يحمل لقبًا كبيرًا من ألقاب النبلاء، وأنهم عادوا بعد اســـتضعاف القرائن التى تعزز نســـبتها إلى لورد باكون؛ فنسبوها إلى واحد بعد واحد من طبقة النبلاء.

ومنها أن أنصار شكسبير فى أمم القارة الأوربية كانوا أوفر عددًا وأرفع صوتًا وأشـــد حماســـة له من أنصاره فى الأمـــة الإنجليزية، وكان الانتصار لشكســـبير يســـاوق الانتصار للحقوق الاجتماعية أو السياسية التى احتدمت معاركها فى أمة من الأوربيين.

وآية الآيات فى هذه العبقرية النادرة أنها كانت من ســـعة الأفق بحيث تنهض منها الحجة لكل طالب حجة فى القضايا المتناقضة،

ولا سيما قضايا التنافس أو التفاخر بين الطبقات، وقد بلغ من اتساع هـذا الأفق أن يزعم أناس أن شكسـبير لم تكـن له نزعة خاصة فى مسائل الاجتماع ونزاع الطبقات، وأن يزعم غيرهم أنه صاحب نزعة «أرسـتقراطية» فى النظر إلى أحوال المجتمـع وأحوال الحياة على عمومهـا، وأن يزعم غير هؤلاء وهؤلاء أنه يأبى هذه النزعة وينزع على نقيضها إلى الثورة واتهام ذوى السـلطان، وكل هؤلاء الزاعمين ممن يسـمع لهم رأى فى هذه الأمور، ومن يسـتندون فى رأيهم إلى وجه جدير بالتأمل والالتفات.

* * *

فالأسـتاذان الفرنسـيان لجـوى وكازميـان Legouis and Cazamian يقرران فى تاريخهما للآداب الإنجليزية أن شكسبير لم تكن له فلسـفة اجتماعية يدين بهـا، ولم تعرف من كتبه نظرة خاصة إلى قضايا الاجتماع.

وجورج براند Brandes الناقد الدنماركى الذى كان ميزانه فى النقد – ولا سيما نقد شكسبير – أشهر الموازين فى القارة الأوروبية إلى ما بعد وفاته فى سـنة ١٩٢٧م، يعتقد أن شكسـبير ينزع منزع العلية فى آرائه الاجتماعية، ويسىء الظن بروح الجماعة، ويعرض الغوغاء فى صورة مزرية كلما صور حركة من حركاتهم فى مواقف الشغب والهياج.

والأسـتاذ لورنـز إكهـورف النرويجـى Lorentz Eckhorf يذهب إلى الطرف الآخر فيقول إن الشـاعر كان لسان الطبقة الثالثة

ويؤلف فى تفصيل ذلك كتابًا سماه شكسبير مدره الطبقة الثالثة: Shakespeare. Spokesman Of the third Estate ويبين فيه أن الشاعر لم ينظر قط فى رواياته نظرة الرضا بالسلطان القائم، وأنه فى حكم الثائر الدائم على كل حالة ينكرها الثائرون ويعملون لتغييرها، ولا ينفى الناقد النرويجى تصوير الشاعر لهياج الغوغاء فى صورته المزرية، ولكنه يعود إلى الأفراد من الدهماء حيثما صورهم شكسبير فى رواياته، فيستخلص منها دلائل العطف - بل العطف الكبير - على كل فرد منهم، ويذكر على سبيل المثال شخصية آدم فى رواية «كما تهوى»، وشخصية الخادم فى رواية «تيمون الأثينى»، وهو الذى ثبت وحده على سجية الوفاء والأمانة بين أهل المدينة.

فلو بحثت معركة الطبقات عن علم تدور عليه لم تكد تعثر فى البلاد الإنجليزية بعلم أوفق لها من اسم هذا الشاعر فى سمو مكانته واتساع أفقه وإحاطة جوانبه بأطراف المعركة من أقصاها فى اليمين إلى أقصاها فى اليسار.

فلا جرم يخطر على الأفكار المشغولة بالصراع بين الطبقات فى العصر الحديث أن الحملة على شكسبير قد انبعثت كلها من غرضها الاجتماعى - أو السياسى - ولم يكن لها باعث من بواعث النقد الأدبى وموازين الشعر والثقافة.

ولا سبيل إلى الفصل الحاسم بين الغرضين فى الواقع، فإن المعركة الاجتماعية – ولا ريب – قد كان لها أثرها فى توجيه الأنظار وإثارة الأفكار التى لا تثيرها معارك الأدب الخالص فى جميع الأوقات ولا تجتذبها إليها بغير حافز من حماسة الجدل فى مسائل الاجتماع والسياسة، أما أن تكون الحملة بحذافيرها من توليد الدعوة السياسية فهو تخمين لا سند له من الواقع، بل ينقضه الواقع عند استقصاء تاريخ الحملة والرجوع بها إلى بداءتها فى القرن الثامن عشر، قبل احتدام النزاع على حقوق الحكم وحقوق الانتخاب.

وإنما سبق إلى الخواطر أن الحملة وليدة الدعوة السياسية لشيوع الظن بأنها صدرت أول مرة من كتاب رجل مشغول برياضة الملاحة، وأن الكتاب الذى وردت فيه موضوع عن قصة هذه الرياضة Romance of Yachting فى سنة ١٨٤٨م التى تعتبر من سنوات الحرج فى تاريخ صراع الطبقات بالقارتين الأوروبية والأمريكية، ولم ينشر هذا الكتاب فى إنجلترا، بل نشر فى الولايات المتحدة وهى مشغولة بصراع الأجناس والعصبيات مع صراع الطبقات، وكان مؤلفه من رجال السلك السياسى يسمى جوزيف هارت Hart يكتب فى هذه المباحث وما إليها كتابة الهواة.

إلا أن هذا المؤلف لم يكن أول من أثار الشك فى أصالة أعمال شكسبير، بل قام هذا الشك قبله بنحو سنة فى دراسات رجل من

رجال الدين بعيد عن شـواغل السياسـة يكاد ينقطع لدراسة المنطق والحكمـة وما يتصل بهما من علوم الربوبية أو اللاهوت، وكان هذا القـس – واسمه جيمس ويلموت Wilmot – يعكف على دراسـة الفلسـفة التجريبية فى كتب فرنسيس باكون، ويستغرب التشابه بين عباراته وعبارات شكسـبير، ويسجل استغرابه هذا عرضًا فى تعليقاته ورسـائله بين ما كان يسجله من اللمع والآراء، ولم يذهب فـى التعليقات والرسـائل مذهب القول الصريح بنسـبة العبارات المتشـابهة إلى باكون دون شكسـبير، ولكنه أثار الشـك فى نفوس محادثيه والمطلعين على رسائله، وذاعت عنه هذه المقارنات قبل أن تصدر فى كتاب مطبوع ببضع سنوات.

وكان من أثر المحادثات فى بيئة القس ويلموت أن صديقه الأستاذ جيمس كورتون كويل Cowell أحد المحاضرين فى مواسـم شكسبير عدل عن إلقـاء محاضرة أعدها لزيارة من زيارات سـتراتفورد، لأنه ارتاب فى إبداع شـاعرها لما نوَّه به فى المحاضرة من أسـرار البلاغة وآيات الإبداع، وتوفى القس ويلموت سـنة ١٨٠٧م ولم ينشـر شـيئًا باسمه عن أصالة أعمال شكسـبير، وإنما كثر الكلام فى المشابهة بين عبارات شكسـبير وعبارات باكون بعد ظهور الرسـائل التى طبعتها إحدى قريباته فى حياته، ويظن أن الكتب التى نشرت فى هذا المعنى لمؤلفـين مجهولين مكتوبة بقلم القس نفسـه ولكنه أخفى اسمه ليربأ

بمكانته الدينية عن لجاج الخصومات فى موضوع كهذا الموضوع المثير، ومن هذه الكتب كتاب عنوانه سيرة الفهم السليم ومغامراته The life and adventures of common sense قيل إنه بقلم طبيب – غير معروف – يسمى هربرت لورنس Lawrence طبع قبل وفاة القس ويلموت بنحو أربعين سنة (١٨٦٩م) وتلاه كتاب الخنزير العليم Learned pig الذى تخيل مؤلفه أن الحكمة روح تتجسد عصرًا بعد عصر من أقدم الأزمنة، وأنها عادت فى ذلك العصر لكشف الحقائق الخفية، ومنها حقيقة شكسبير، وقد طبع هذا الكتاب سنة ١٧٨٦م قبل وفاة القس ويلموت باثنتين وعشرين سنة، ومضت بعده فترة طويلة تلاحقت بعدها الكتب فى نفى أصالة شكسبير، ثم تعددت الأسماء التى تنتسب إليها الروايات والقصائد المنشورة فى مجموعته، وأصبح باكون أحد ثلاثة من النبلاء يدعى المنكرون لشكسبير أن أصحابها ألفوا له تلك الروايات والقصائد، والنبيلان الآخران هما لورد روتلاند Rutland ولورد أكسفورد oxford وقد سماه لونى Looney فى كتاب ظهر سنة ١٩٢١م، ثم زكته الأستاذة أمفلت Amphlett فى كتابها: «من هو شكسبير؟» ?who was Shakespeare.

وكان اسم لورد أكسفورد آخر الأسماء المختارة من طبقات النبلاء فى عصر شكسبير لكتابة المؤلفات المنسوبة إليه، ثم بقيت

الدعوى وتغير الاتجاه فى اختيار الأسماء، فظهر فى سنة ١٩٥٦م كتاب عنوانه «الرجل الذى كان شكسبير» the man who was Shakespeare بقلم كلفن هوفمان Calvin Hoffman وهو ينقل هذه الدعوى من سلك النبلاء إلى سلك الأدباء، ويرشح الشاعر مارلو Marloew لكتابة الروايات والقصائد ولكنه يقول إن «مارلو» كتبها متخفيًا؛ لأنه كان مطاردًا على خطر من الاعتقال والموت، فكتب اسمه على قبر بحار يعرفه وظل متخفيًا فى زاوية مجهولة حتى مات، فانقطع شكسبير عن التأليف.

وربما بلغت بعض الظنون مبلغ اللعب بالألغاز فى النظريات والتخمينات المتأخرة من ابتكارات المحدثين، وأشبهها بلعب الألغاز تلك النظرية التى يقول صاحبها بنسبة تواليف شكسبير إلى حلقة من النبلاء وعلماء اللغة يشترك فيها اللوردات أكسفورد ودربى وروتلاند وباكون وآخرون، وأقوى ما فى أظانين المؤلف من حجة على زعمه أن أسلاف هؤلاء النبلاء ممجدون – فوق اللازم – فى بعض الروايات ... وما من حجة من هذا القبيل تثبت لمحة عين أمام اعتراض واحد يرد عليها، وهو استحالة كتمان السر الذى يشترك فيه أولئك النبلاء والأدباء ومن حولهم أعوانهم من الحاشية ومديرى المسارح والممثلين[1].

* * *

(١) حلقة شكسبير السحرية تأليف إيفانز Shakespeare's Magic by A. J. Evans

ومن مساوئ هذه الدعاوى أنها تجتذب إليها المتهوسين وعشاق الأفانين، كما تجذب إليها المولعين بفض الأغلاق وحل الرموز والألغاز، فينحرف البحث فيها عن سوائه ويشترك فيه طلاب الحقائق وطلاب الحيل وضروب المهارة والتوفيق بين الغرائب والأقاويل.

وهكذا حدث فى موضوع المباحث التى تدور على أصالة شكسبير، فكان ممن تصدى لها من أفضى به الهوس بهذه الدعوى إلى مستشفى المجانين، ومنهم من كان يكتب حكايات الشرطة واللصوص وحكايات التزييف والتضليل على التخصيص، ومنهم من كان يشتغل بالجاسوسية الدولية أو يتتبع أخبار هذه الجاسوسية، وقل فى أسانيدهم جميعًا ما يستحق التوقف عنده وإطالة النظر فيه، وليس من السهل تلخيص هذه الأسانيد فى بضع صفحات، ولكنها قد تلخص فى ثلاثة أبواب من الأسانيد يوزن كل منها بميزان قريب يبين حظه من الرجحان.

فأول أبواب هذه الأسانيد وأضعفها، باب الرموز والحروف المدسوسة بين السطور، ويصعب نقلها من اللغة الإنجليزية إلى اللغة العربية لارتباط الهجاء بالمعنى فى الرموز التى يستدلون بها على الأسماء والكنايات، وأيسر الأمثلة فهما اعتمادهم على المشابهة بين كلمة باكون Bacon اسم الفيلسوف المعروف وكلمة باكون بمعنى لحم الخنزير، فإنهم يحسبون تكرار الكلمة مقصودًا للإيحاء باسم

المؤلف المستور، ولكن هذا التكرار يماثله تكرار بمقداره أو أكثر منه في الكلمات المشتركة بين أسماء الأشياء وأسماء الرجال والنساء، وقد لهجوا بكلمة شاذة ملفقة[1] جاءت في رواية الحب الضائع تهكمًا بالمتشدقين المولعين بالكلمات الطويلة، فعالجوا حروفها الكثيرة ضما وتفريقًا ليستخرجوا منها اسم المؤلف المفروض، وأيا كان اسمه فمن المحقَّق أن اشتراك الحروف لا يصدق في وقت واحد في الإيحاء باسم باكون، واسم روتلاند، واسم أكسفورد، واسم مارلو، ومن عسى أن يذكر من أسماء النبلاء والأدباء.

* * *

ولسنا نعلم أن أحدًا من علماء اللغة وخبراء الأدب أقام وزنًا لقرينة من قرائن الجفر والرموز، وإنما يلهج بهذه القرائن جمهرة المتطلعين وطلاب الأفانين، أما علماء اللغة وخبراء الأدب والنقد فوسيلة التحقيق عندهم أن يقابلوا بين الأساليب والموضوعات، وهي أدنى إلى الجد وسداد النظر في هذه الدراسات، وأكثرهم يرى بعد المقارنات الطويلة أن تشابه العبارات لا يثبت شيئًا خاصًا بشكسبير أو بأديب من أدباء عصره؛ لأنه قد يثبت المستحيل وهو أن يكون باكون مؤلفًا لكتب العصر كله من منظوم ومنثور، إذ كانت العبارات المتشابهة غير قليلة بين أدباء العصر على الإجمال، وعندهم أن

(١) الكلمة هي: Hororificabihitudinitatibus.

لوازم العصر قد تشيع على تعبيرات الأقلام كما تشيع فى أحاديث الألسنة فى كل حقبة على نهجها ووتيرتها، وبخاصة فى عصور التطريق والتعبيد على مثال العصر الذى كتب فيه شكسبير وباكون، لأنه كان بمثابة مفترق الطريق بين الكتابة باللاتينية والإغريقية والإقبال على الكتابة باللغة الإنجليزية الحديثة، وفى أمثال هذه العصور تتولد الصيغ والقوالب ويكثر التشابه فى الأنماط والعبارات، ويكاد الكتاب جميعًا أن يصدروا عن نمط واحد وسليقة واحدة، لأنهم لا يبلغون من كثرة العدد أن تتسع بينهم شقة الخلاف، ولا يبلغون من تنوع الأساليب أن تكون فيهم مدرسة مستقلة لكل أسلوب.

ومما يذكر فى جانب شكسبير أنه كان ينقل الخطب والأحاديث بنصوصها من تراجم بلوتارك كما نقلت إلى اللغة الإنجليزية، وأنه كان يستطيع ذلك دون أن يحتاج إلى أقلام باكون أو روتلاند أو أكسفورد أو مارلو أو غيرهم من علماء عصره، لأنهم أحرى أن يرجعوا إلى المصادر الأولى إذا احتاجوا إلى التأليف.

على أن اتفاق النقاد على تشابه الألفاظ وتناقل العبارات بين كتاب العصر - يقابله اتفاق يكاد أن ينعقد انعقاد الإجماع - على تباعد «الروح» بين كتابة باكون وكتابة شكسبير، وتباعد «الروح» بين شكسبير وسائر معاصريه، وليس هذا الفارق الواضح بالفارق الضعيف الذى يجوز إهماله فى هذا المقام، ولكنه على وضوحه

فارق عسير الثبوت بالبرهان المتفق عليه، كما يعسر ثبوت الفارق بين ملامح الوجهين مع يقين الناظر بوجود هذا الفارق أمام عينيه، وقصارى هذه الفوارق الجلية الخفية، أن تقوم فى الروع وتحول دون الجزم بوحدة التأليف.

وندع هنا أسئلة السائلين عن العلة التى تدعو باكون أو روتلاند أو أكسفورد إلى تأليف كل هذه الروايات من وراء ستار، وعن العلة التى تفسر لنا خفاء الأمر فى رواية بعد رواية وفى بيئة المسرح وبيئة العلية وبيئة اللغط الاجتماعى التى تحيط بكل قصر من قصور النبلاء وكل أديب من أعلام الأدباء، وكل ممثل ملحوظ المكانة بين الزملاء والنظارة ورواد الفن من خلف الستار أو أمام الستار، وحسبنا أن نقول إن كل سؤال من هذه الأسئلة يجاب عنه بأقوال متضاربة ليس منها قول واحد يقطع الجدل ويوجب الإقناع، ومن أمثلتها أن صناعة المسرح كانت يومئذ من الصناعات المرذولة فى عرف المتطهرين، وأن المؤلفين النبلاء كانوا يتخذون الرواية المسرحية أداة لإبداء الآراء التى يكتمونها فى شئون السياسة، وأن هواية المسرح لزمت بعض النبلاء من أيام تلمذتهم فى الجامعات، لأنهم درسوا فيها ومثلوا بين جدرانها روايات اليونان والرومان، وعاشوا بعد ذلك ينظمون الشعر، ويعرضون المواقف المسرحية فى سهرات القصور، وكل هذه الأجوبة من مطارح الظن تقال ويبقى بعدها متسع للسؤال.

إلا أن المقارنة بين الأساليب قد أسفرت عن نتيجة لا يسكت عنها فـي صدد الكلام على تحقيق أصالة الشـاعر بهذه الوسـيلة، وربما اختلف النظر إلى النتيجة التى أسـفرت عنها المقارنات الطويلة بين مجموعة شكسبير وغيرها، ثم بين الروايات والقصائد التى احتوتها مجموعة شكسبير، ولكن الرأى الغالب عند جلة النقاد أن شكسبير لم يكتب كل ما فى المجموعة من نظم ونثر، وأن هناك أقلامًا شـتى تنم عليها بعض الفصول أحيانًا وبعض المناظر أحيانًا أخرى.

فإذا صحت هذه الآراء فهى أدعى إلى الاسـتغراب من خفاء أمر المؤلفين المتسـترين، ولا بد من سؤال يضاف إلى تلك الأسئلة وهو: لمـاذا يحتاج النبيل المتخفى إلى ترقيع كتابته بكلام أديب آخر دون طبقته فى الأدب وفى المنزلة الاجتماعية فضلًا عن اطلاعه على السر الذى يخفيه؟ ولماذا يسـتعير من المؤلفات المهجورة إذا كانت شهوة التأليف باعثه الوحيد إلى الكتابة؟

إذا كان شكسـبير هـو صاحب التأليف وهو المسـئول عن إعداد المسرحيات للتمثيل فقد تزول الغرابة بإحالتها إلى ضرورات المسرح أو إلى طبـع المجموعة بعـد وفاته، ولكنها تلجئنا إلى تفسـيرات غـير مفهومة إذا كانت المجموعـة من عمل نبيل يهـوى الكتابة ولا يحترف التمثيل.

***

وصفوة القول فى بحث خصائص الكتابة أن المقارنة بين أسـلوب شكسـبير وأسـلوبى باكون ومارلو لم تنتهِ إلى بينة معقولة تزعزع

أصالة شكسبير، ولم تجر مقارنة تذكر بين أسلوبه وأسلوبى كروتلاند وأكسفورد، لأن المحفوظ من آثارهما لا يكفى لترجيح رأى من الآراء.

ولقد أشرنا من قبل إلى النزعة الاجتماعية أو السياسية التى قيل إنها أوحت بإنكار شكسبير وإسناد أعماله إلى أولئك النبلاء، فلا يفوتنا أن نشير هنا إلى الموافقات الأدبية التى تكمن وراء كل نوع من أنواع القرائن والشبهات يستدلون به على ظنون المتشككين فى أصالة شكسبير، فإنها أحق بالملاحظة فى دراستنا الأدبية وأوضح منها علاقة بأسبابها، فقد كان الاستدلال برموز الجفر والحروف يشيع فى الزمن الذى راجت فيه قصص الشرطة وأسرار المغامرات، وكان الاستدلال بخصائص الأساليب يشيع فى إبان الإقبال على تحليل الشخصيات واستخراج طبيعة الكاتب من الكتابة على ديدن القائلين بأن الأسلوب هو الرجل، أو على ديدن الرواد الأوائل من النقاد النفسانيين.

كانت الرموز وحروف الجفر قراءة المتطلعين من عشاق الألغاز والأفانين، وكانت خصائص الأسلوب قراءة الأدباء المتخصصين، وبقيت بعد هذين النوعين قراءة أخرى أعم منهما وأدنى إلى بديهة الإنسان من القراءات الخاصة أو قراءات المتخصصين، لأنها تتناول طبيعة العقل الإنسانى التى تعنى الإنسان فى كل أمة وفى كل زمان.

* * *

أهـم وأجـدى من الرمـوز ومن خصائـص الأسـاليب، نظرات الباحثين فى طبائع الفكر وعادات العقل الإنسانى وخوارقه، وفيما يُلهَمه بالفطرة وما يكسـبه بالتعليم والخبرة، وفى معنى العبقرية ومعنى النبوغ ومعنى الإدراك اللدنى والإدراك بالوسيلة والدراسة، وهذا هو مجال البحث الذى طوى كل بحث يتناول الشك فى أصالة شكسبير؛ لأنه يقيم هذا الشك على مقدار المعلومات التى لا بد منها لمن يبدع المؤلفات المنسوبة إليه.

شكسبير لم تتهيأ له المعلومات الضرورية لتأليفها.

شكسبير لا حاجة به إلى معلومات غير معلوماته التى استفادها من دراسته وتجارب حياته، واستلهمها من فطنته ووحى عبقريته.

وبـين هذين القطبـين المتقابلين تموج الأقـوال والآراء وتتدافع الوقائع والنظريات بين المنكرين والمعجبين، وتعمل العاطفة عملها مع ما يعمله الـدرس ويعمله الخيال، فيذهب الخلف كل مذهب، ويخيل إلينا أن القطبين يسـتديران مـن آونة إلى أخرى، فلا ندرى أين يكون المنكرون وأين يكون خصومهم المعجبون.

فالمنكرون لشكسـبير يبالغون جهد المبالغـة فى تعظيم الأعمال المنسوبة إلى شكسبير، ليقولوا إنها أعظم من طوقه وأبعد من ذرعه، وأحجى أن تكون من عمل غيره.

والمعجبون بشكسـبير يبالغـون من الجانب الآخـر فى إحصاء العيوب والتنبيه إلى مواطن الجهل والخطأ، ليقولوا إن هذه المؤلفات

لا تأتى ممن تعلم تعليم باكون وروتلاند وأكسفورد، وتعليم مارلو وشعراء عصره المثقفين.

وعلى هذه القضية - قضية المعلومات - تدور رحى المعركة التى هدأت من جانب المختلفين على الرموز ومن جانب الباحثين فى خصائص الأساليب، ولكنها فى هذا الجانب لا تزال إلى السنة الأخيرة تتلقى المدد من حين إلى حين، وفيما يلى خلاصة تلملم من شعث هذه المعركة ما يستطاع الإلمام به فى حيز هذه الصفحات:

يقول المنكرون إن المؤلفات المنسوبة إلى شكسبير تدل:

أولًا: على السياحة الواسعة فى القارة الأوربية.

ثانيًا: على العلم بالبحر وحوادث السفن وفن الملاحة.

ثالثاً: على فهم دراسات دقيقة كدراسة القانون وأحوال المقاضاة مع قلة الإشارة إلى الصناعات التى زاولها شكسبير وأولها صناعة التمثيل.

رابعًا: على شواغل من الرياضة العالية ولهو الفروسية يشتغل بها العلية ولا يشتغل بها أمثال شكسبير.

خامسًا: على نظرات رفيعة فى المسائل الكبرى ومعرفته باللغات الحديثة والقديمة لم يتبين من ترجمة شكسبير أنها تيسرت له بالدراسة أو الاطلاع.

وزبدة أقوالهم فى هذه الملاحظات على إجمالها أن علامة الصحة أن تكون الترجمة مفسرة للمؤلفات وأن تكون المؤلفات

مفسرة للترجمة، وهذه علامة لا نجدها إذا نسبنا المؤلفات إلى شاعر ستراتفورد، ولكننا نجدها وافية متواترة إذا نسبناها إلى غيره، وكل من المنكرين يرى أن هذا «الغير» لا يكون إلا النبيل الذى اختاره بين زمرة يشبهونه فى التربية والرياضة والسياحة وشواغل الحياة.

ويتبين منهج المنكرين عامة من الأسئلة التى تمليها المشكلة ويعتقدون أنهم أجابوا عنها وحلوا المشكلة بنسبة الروايات والقصائد إلى مؤلفهم المختار، وهذا نموذج من تلك الأسئلة يلقيها الكاتب الروسى بروفشيكوف Porohovshikov فى كتابه الذى سماه إماطة اللثام عن شكسبير Shakespeare Unmasked ونسب فيه المؤلفات إلى اللورد روتلاند، ثم يجيب عن كل منها إجابة واحدة لا تحتمل قولين فى ظنه، ويبدو من وضع الأسئلة فيها أن الجواب محضر قبل السؤال:

وهذه هى الأسئلة الهامة فى هذا الكتاب، ولها نظائرها من الأسئلة فى كتب المنكرين الآخرين، ممن لا ينسبون المؤلفات إلى لورد روتلاند وحده بين النبلاء.

يسأل الكاتب الروسى:

١ – كيف يمكن أن تنكشف الروايات عن طبقة من المعرفة تناصى أرفع قمة بلغتها الثقافة فى عصرها؟

٢ – ولماذا تغمر الروايات بالكلام على الرياضة ومصطلحات القانون؟

٣ – ولماذا تخلو الروايات – إلا فى النادر – من صور المسرح إن كان مؤلفها شكسبير؟

٤ – وما سر هذا الولع بالمناظر الإيطالية فى مدن معينة تقاد إليها الحوادث من أماكنها التى ذكرت فى مصادرها الأولى؟

٥ – ولماذا تتابعت الملهيات السعيدة حول سنة ١٦٠٠م وتلتها الفواجع الأليمة بعد ذلك؟

٦ – ولماذا كان شكسبير الشاعر الوحيد الذى لم يكتب سطرًا واحدًا عند وفاة الملكة اليصابات؟

٧ – ولماذا لم يكتب شيئًا بعد سنة ١٦١٢م؟

* * *

ومحصل الأجوبة عن هذه الأسئلة جميعًا أن حياة روتلاند وموته يفسران لنا كل سؤال منها نحار فى جوابه إذا أصررنا على نسبة الروايات إلى شكسبير، ولكن الكاتب الروسى يزيد الحيرة فى الحقيقة حيرتين، إذ هو يناقض القائلين بموافقة الروايات لحياة باكون وموافقتها لحياة أكسفورد، ولا اتفاق بينهم فيما عرضه من سؤال أو جواب.

* * *

وأول اعتراض يرد على الذهن المستقل – فضلا عن الذهن المتعصب لشكسبير – أن المنكرين تذكروا كل سؤال ونسوا سؤالا

واحدًا هو أولى بالتقديم من كل ما سألوا عنه، وكان عليهم أن يسألوا قبل ذلك: ما هو فضل العبقرية فى حسبانهم؟ وأين مكان الملكات الممتازة إن أسقطوا من حسبانهم خوارق العادات وأجروا كل شىء فى التأليف مجرى المعهود المقدور فى عادات المعقول؟

ففى الروايات «معلومات» لا تستقى من ثقافة العصر كائنًا من كان مؤلفها وبالغًا ما بلغ من علوم عصره ومحصول جامعاته، ولم يكن فى طاقة ذلك المؤلف أن يقسم عوارض علم النفس على حسب المرضى المصابين بانحراف العقل وانتكاس الخليقة ذلك التقسيم الدقيق الذى نقرأه اليوم فى أدوار هملت وتيمون الأثينى والملك لير ولادى مكبث وريتشارد الثالث وغيرهم من المرضى «النموذجيين» فى أوصاف علماء النفس المحدثين، وما كان فى طاقة المؤلف أن يستبطن تلك العوارض والأعراض ويقسمها حسب أطوارها بما يستقيه من دروس جامعاته ومعاهده، ما لم ندخل فى الحسبان فضل العبقرية وقدرتها على خوارق العادات فى وعى السرائر واستطلاع خبايا الضمائر وتصوير كل أولئك فى قالب شبيه بقالب الحياة.

على أن الغريب عندنا فى القرن الحاضر أو فى القرن التاسع عشر لم يكن غريبًا فى عصر شكسبير، وهكذا كل عصر من عصور الانتقال والانقلاب له معارفه العامة التى يتبادلها الناس من المختصين وغير المختصين ومن المتفرغين لها وغير المتفرغين، فليس من اللازم أن نلجأ إلى فرض العبقرية لنفهم قدرة شكسبير على العلم بمصطلحات

الرياضة والملاحة ومراسم القانون، لأن رياضة الفروسية كانت خبرًا مشاعًا فى عصر اليصابات، وكان قيام ملكة على العرش حافزًا قويًا بين النبلاء للتنافس فى النخوة والبطولة وبراعة الفروسية والصيد والمسابقة، ومن لم تكن له ثروة النبيل فلا حجاب بينه وبين ساحات الطرد والصيد وحلبات المبارزة والسباق، ومما اشتهر عن شكسبير أنه هجر بلده هربًا من تهمة التعرض للصيد فى بعض ساحاته المنوعة، وأنه كان على صلة حميمة بكثير من فرسان عصره، وأنه كان لمعرفته بالخيل تعهد إليه خيول السادة المترددين على المسارح قبل أن يشتغل بالتمثيل، وما كان ليفوته وهو يحرس تلك الخيول أن يسمع من أخبارها ومزاياها ما يغنيه فى كتابة ما كتبه عن ألعاب الفروسية وأحاديث الفرسان.

أما الملاحة فقد كان حديثها على كل لسان فى عصر المغامرات البحرية والرحلات إلى الأقطار المعلومة أو المجهولة، ولم يكن ناد من أندية العامة عند فرضة لندن يخلو من عشرات الملاحين من شتى الأمم يتحدثون بما شهدوه وما سمعوه وفيه ما يغنى السامع عن ركوب البحار لوصف ما وصفه الشاعر فى بعض رواياته، وهو مكتوب لأناس يسمعونه ويسمعون أمثاله فى غير المسارح ومشاهد التمثيل، وقد كتب الشاعر سوذى Southey سيرة نلسون، فقال قراؤه من جنود البحر إنه كان يتسلل بين أدوات السفن كأنه قطة السفينة المنذورة أو كلبها المنذور، وسوذى لا يسمو فى عبقريته

إلى أوج شكسبير، وسفن القرن السادس عشر أو السابع عشر لا تحتوى من الدقائق ما احتوته السفن فى عصر نلسون، ولا تحتاج مصطلحاتها إلى علم وافر بالملاحة كعلم الملاحة الحديث، وليس لنا بعد كل تقدير أن ننفى خروج شكسبير من وطنه ونقطع باستحالة وصف البحر فى رواياته على المشاهدة والتجربة وممارسة الملاحة فى بعض الرحلات، فإن فى سيرته - كما تقدم - فترة مجهولة بعد سنة ١٥٨٤م تزيد على ست سنوات لا يجوز البت فى خبر من أخبار حياته ولا فى مزاولة من شتى مزاولاته ما لم تنكشف لنا أخبارها على وجه اليقين، فإن لم يكن قد ثبت أنه قضى هذه الفترة فى رحلات البحر ومشاهدات السياحة فلم يثبت كذلك أنه بقى خلالها فى مكان معلوم لم يفارقه إلى مكان قريب أو بعيد.

ومصطلحات القانون فى الروايات لا تزيد على القسط الذى يلتقطه الذهن اليقظ من معاملاته أو من محادثاته مع الفقهاء والمسجلين، وكانت لشكسبير معهم - ولا ريب - أحاديث فى بلدته حيث يختلف القرويون إلى المسجلين وكتاب العقود شهودًا أو موقعين أو أصحاب شأن فى ورقة من أوراق التوثيق، وكانت له عقود ومشاركات كما كانت له أسمار يستمع فيها لفقهاء القانون وأصحاب القضايا ورواد المحاكم والدواوين، وفى استطاعة مثله - ولو لم يقصد - أن يتلقف من معارف القانون ما يعينه على مساجلاته القانونية، فإذا قصد أن يحيط ببغيته منها فلا يعييه أن يدرك ما يبتغيه.

ولقد قيل إن كثرة الكلام على الصناعات ما عدا الصناعة التى مارسها الشاعر – وهى التمثيل – دليل على أن الكاتب من غير الممثلين، والأحجى لا يكتب رواياته ليمثل الممثلين ولا ليعرض على النظارة أدوات فنه ومصطلحات عمله، وإنما يكتب ليمثل الصناعات والصناع جميعًا ما عدا الصناعة التى يرونها منه حين يرونه على المسرح فى تلك الأدوار، وليس الإكثار من ذكر المسرح والتمثيل دليلا على خبرة المؤلف بالشئون المسرحية أو قيامه بتمثيل الأدوار أو توجيهه للممثلين، وإنما يدل على ذلك وضعه للرواية على النحو الذى يهيئها للغرض ويهيئ للممثلين فيها أداء أدوارهم وإلقاء أقوالهم على أيسر سبيل، وهذه هى القدرة التى أحسها أستاذ المسرح الشكسبيرى فى زمانه سير هنرى إيرفنج الذى مثل أشهر الأدوار فى روايات شكسبير، فإنه يقول إن هذه الأدوار لا يتأتى لأحد لم يشتغل بالتمثيل أن يكتبها هذه الكتابة وينسقها هذا التنسيق.

***

أما الثقافة التى تنال بالتعليم فى معاهده ولا يتلقاها طالبها – فى رأى المنكرين – من أفواه الناس أو من معلومات العصر المتداولة بين عامة أبنائه، فليست هى بالكثيرة فى مجموعة شكسبير، ولكنهم يستكثرونها عليه فيما عرف من تعليمه المدرسى بالقرية التى ولد فيها، وأخص ما يذكرونه من هذه العلوم دروس اللغتين

القديمتين اللاتينية والإغريقية ودروس اللغات الحديثة، ولا بد أن يكون مؤلف المجموعة قد أضاف فيها شيئًا من الفرنسية والإسبانية والإيطالية.

ولكننا نرجع إلى الروايات والقصائد فلا نرى فيها جزءا كبيرًا أو صغيرًا يحتاج إلى معرفة باللغات القديمة أو الحديثة أو فى من النصيب الذى ناله شكسبير ومن نشأوا مثل نشأته فى قرى الريف. فقد كانت المدارس المعروفة باسم مدارس الأجرومية تُعلم تلاميذها اللاتينية وتحرص على تزويدهم بنصيب حسن منها لأنها كانت لغة الدين فى الكنائس الغربية خلافًا للكنائس الشرقية التى كانت تقرأ الصلوات بالإغريقية، ولهذا كانت عنايتهم باللاتينية أكبر من عنايتهم بالإغريقية، وظل معلموها من رجال الدين يتشددون فى تعليمها إلى ما بعد الثورة البروتستانتية بزمن طويل. وقد قال معاصر شكسبير الشاعر الأديب المثقف بن جونسون Ben Johnson إن لغته اللاتينية كانت قليلة ولغته الإغريقية أقل منها ولكنه كان موفور الحظ من لغة الطبيعة، وهذه شهادة يؤيدها نظام التعليم كله فى عصر شكسبير، إذ كان تعليم اللاتينية أرقى من تعليم الإغريقية فى سلك التلمذة الأولى، وكان التوسع فى الإغريقية مطلبًا يتوفر عليه طالبه بعد الانتقال من هذه التلمذة إلى ما يتبعها من مراحل التعليم.

وقد عرف بن جونسون معاصره شكسبير معرفة الزملاء ولم يسرف فى الثناء عليه، بل لعله كان إلى القصد أدنى منه إلى السرف

حين وصف علمه باللغتين اللاتينية والإغريقية، أو لعله كان يقيس علم شكسبير بهما إلى علمه وعلم أقرانه من أساتذة اللغتين، ولكن توماس فولر Fuller الشاعر الذى كان يعاصر شكسبير (١٦٠٨ – ١٦٦١م) يقول فى تحيته له: «إننى لا أنحل الطبيعة كل فضلك، لأن الشاعر يصنع كما يولد، وهكذا كنت أنت أيها الكريم شكسبير».

وممن عاصروا شكسبير من الشعراء الأدباء ريتشارد بارنفلد Barnfield (١٥٧٤ – ١٦٢٧م) الذى كان يعجب به ويحكيه ويقول عنه – وإن لم يذكر علمه باللغات – إنه سيخلد كما خلد شعراء اللاتين.

ويجوز مع هذا أن يكون شكسبير أجهل باللاتينية مما وصفه بن جونسون أو وصفه المنكرون، ثم لا يجهل القدر الذى يكفيه للرجوع إلى مصادرها التى لم تنقل إلى الإنجليزية، وهى قليلة لا تستعصى على قارئ متوسط الذكاء قد درس من مبادئها ما درسه شكسبير.

ومشكلة اللغات الحديثة أيسر من مشكلة اللغتين القديمتين، لأن الكلمات الفرنسية أو الإسبانية أو الإيطالية التى جاءت عرضًا على ألسنة بعض شخوصه لا تزيد على ما يعلمه عامة أبناء عصره من تلك اللغات، وقد كانت رحلاتهم فى السلم والحرب إلى فرنسا وإيطاليا تتصل فى عهد الرحلات المتلاحقة بين بلاد القارة الغربية، وكان زوار إنجلترا من الفرنسيين والإسبانيين يتفاهمون على نحو من التفاهم بغير حاجة إلى التراجمة فى محادثاتهم

اليوميـــة مع أبناء البـــلاد، وكانت إيطاليا فى عصـــر النهضة قبلة المهذبين والظرفاء ينقلون عنهـــا الأزياء، ويأخذون عنها الصحاف المختارة من الطعام ويتشـــبهون بسادتها فى ألعاب البيوت وملاهى الســـهرات، ويذكرون أوراق اللعب بأسمائهـــا الإيطالية التى بقى بعضها فى اللغة الإنجليزية إلى الآن.

فـــإذا كان فى أمرها فى اللغات الحديثة وجه للغرابة، فالغريب فى هذا الأمر أن يجهلها شكسبير ولا يعرف منها ذلك القدر الذى لا يستعصى على أحد يريده فى وقت من الأوقات.

* * *

ويبـــدو أن المناظرة بين الفريقين عن أصالة شكســـبير قد تحولت إلى ســـباق فى البحث عن المحاسن والأخطاء ولكن على غير المنظور من المنكرين ومن المتشيعين، لأن المنكرين هم الذين يتحرون مواطن الإتقان والدراســـة الرفيعة ليقولوا إن المنظوم والمنثور فى المجموعة مـــن عمل مؤلـــف غير شكســـبير، ويقابلهم من الطـــرف الآخر من يخالفونهم من المتشـــيعين المعجبـــين أو المتعصبـــين، فيمعنون فى تحـــرى مواطن الخطأ والزلل ليقولوا إن المجموعة لا تكون من عمل مؤلف كأصحاب الدراسات الرفيعة الذين ترددت أسماؤهم فى أقوال مخالفيهم، إذ هى أخطاء بينة لا تخفى على المتعلم الذى أصاب من العلم الرفيع ما أصابه أمثال أولئك الأقطاب.

ولهذا كشف المعجبون بالشاعر ما لم يكشفه منكروه من أخطائه وعيوبه، ولم يتركوا عملا واحدًا من منظومه أو منثوره لم يأخذوا عليه خطأ فى التاريخ أو فى الجغرافية أو فى العلم بأحوال الأمم وطبائع الأمور.

ونذكر فى أمثلة ذلك إطلاق المدافع فى عهد هملت، أى عهد الغارة الدنماركية على إنجلترا، مع أن الأسلحة النارية لم تستخدم فى أوروبة قبل القرن الرابع عشر. ومن أمثلة هذه الأخطاء كلامه عن جامعة وتنبرج Wittenberg فى ذلك العهد مع أنها تأسست فى مفتتح القرن السادس عشر، وكلامه عن الحرس السويسرى فى العهد نفسه وهو نظام لم يعرف فى الشمال، وعن شواطئ بوهيمية فى رواية «نادرة الشتاء» وعن الساعة الدقاقة فى عهد يوليوس قيصر، وعن الأزياء والنباتات والأحياء فى غير أماكنها من القارات.

هذه المآخذ وعشرات من أمثالها قد جمعت من كل فطنة ولكنها لم تثبت شيئًا مما أريد إثباته من أصالة شكسبير، لأنها نوقشت وغربلت فصارت إلى نتيجة من ثلاث ليس منها ما ينتفع به فى هذا المبحث خاصة، وإن كان فيها منتفع للبحث فى تاريخ الأدب وفى خصائص العبقرية وأخطاء العلماء والأدباء.

فبعضها ليس فيه خطأ تاريخى ولا جغرافى وإنما الخطأ فيه من النقاد أنفسهم لأنهم نظروا إلى المواقع على ما كانت عليه فى أزمنتهم أو فى الماضى القريب ولم ينقبوا عن ماضيها المجهول.

فبوهيميـــة كانت فى القرن الثالث عشـــر تمتد مـــن بحر أدريان إلى البحـــر البلطى ولم تكن خالية من الجداول والأقنية الصناعية، ولم تذكـــر فى موضعهـــا على البحر لأول مرة فى مجموعة شكســـبير، بـــل ذكرها جرين على هـــذا الموضع فى روايته دوراســـتس وفونيه Dorastus and Fawnia قبل تأليف رواية شكســـبير، وقد كان جرين أستاذًا فى الأدب من الجامعتين.

وبعـــض تلـــك المآخذ خطـــأ ولكنه لا يجهـــل أو لا يجهله كاتب الروايات كائنًا من كان، ومن قبيله ذكر المدافع فى عهود لم تعرفها، لأن اختراع البارود مذكور فى رواية هنرى الرابع التى لم تسلم من مآخذ غير هذا المأخذ، فليس ذكر المدفع قبل عصره جهلا من المؤلف ولكنه جرى فيه على عادة الفنانين من المصورين والمسرحيين الذين كانوا فى عصرالنهضة يســـتبيحون المخالفات التاريخية فى ســـبيل تحلية الصورة أو بلاغ التأثير فى المناظر المسرحية.

وســـواء صدرت هذه الأخطاء عن جهل بحقيقتها أو عن ترخص من الكاتب فى ســـبيل الأداء الفنى لقد كانت مما يؤخذ على المؤلفين مـــن كبار العلماء وفـــى مقدمتهم باكون فى كتبه التى تنســـب إليه نسبة لا اختلاف عليها، فقد اضطر رينولد مقدم مقالاته إلى التنبيه إلى أخطائـــه، فقال إنه لم يكن يعنى بصحة التفصيلات فى كتابته، ومما حســـب عليه أنه أشـــار إلى ملابس آراس Arras على لســـان ثمســـتوكليس وهو يخاطب ملك الفرس، وله فى الأنسجة الفارسية والشرقية مندوحة عن ذكر آراس.

ومن العلماء الذين حسبت عليهم أخطاء كهذه شابمان Chapman مترجم هومر إلى اللغة الإنجليزية، فإنه يذكر المسدسات فى عصر البطالسة بين مناظر روايته «سائل الإسكندرية الضرير» ويجعل أبطال الرواية يقسمون بالأيمان المسيحية.

وقد حُسِب على الشاعر سكوت خطأ من أخطاء الجغرافيا فى وطنه أغرب من خطأ بوهيمية المحسوب على شكسبير أو جرين، لأنه جعل الشمس فى إحدى رواياته Antiquary تغرب على صفحة البحر المحيط فوق شواطئ أسكوتلاندا الشرقية، وأخطاء سكوت التاريخية لا تقل عن أخطائه الجغرافية، ومنها أنه تحدث فى رواية إيفانهو Ivanhoe عن عصر ريتشارد الأول، فأجرى الأحاديث على نهج الفروسية الذى لم يعرف قبل عصر إدوارد الثالث، ومنها أنه تحدث فى رواية كنلورث Kenilworth عن الرحلات إلى فرجينيا قبل أن تؤسس هذه المدينة.

وكان الشاعر برونتج Browning عليمًا بالفن الإيطالى، أقام فى مدينة فلورنسا اثنتى عشرة سنة لدراسته، ولكنه يقول عن مساشيو Masaccio إنه يقتدى بليبى Lippi مع أن الأول هو السابق فى زمانه[1].

(١) يراجع كتاب شكسبير فى الحق والرواية لمؤلفه جون سمارت:
Sh. Truth and Tradition by smart.

فـلا فائدة مـن الاعتماد علـى الأخطاء، لإثبات علـم المؤلف أو جهله»، ولا فائدة كذلك من الاعتماد على التشـابه بين العبارات، فإنه قد تتشابه فى العصر بغير سرقة ولا انتحال، وقد تدل على أن باكون هو الذى اقتبس من شكسبير كما يرى الأستاذ جيرالد ماسى Massay الذى يعتقد أن أفكار شكسبير مبثوثة فى كتابات باكون، ومهما يكن من تشـابه العبارات فليست معجزة الرواية المسرحية فى الكلمات بل خلق الشـخوص التـى تتحدث بتلك الكلمات، وقد يحفظ الإنسـان كلمات المشهورين وغير المشـهورين الذين يعيشون معه فى عصره ولا يسـتطيع مع هذا أن يجمع منهم رواية أو يصنع منهم شـخصية يضعها فى موضعها من الرواية، فإذا ثبت التشابه بين مئات العبارات فى كلام باكون وكلام شكسـبير فالمشكلة باقية بحذافيرها بين ثبوت هذا التشابه الكثير، وتلك المشكلة هى إثبات القدرة على خلق الشخصية ورسم الوحدة فى موضوع الرواية، وهذا دون غيره هو فن الرواية المسرحية وعمل الشاعر الخلاق المقتدر على التخيل والابتداع[1].

ولا يعـد الخـلاف على أصالـة شكسـبير منتهيًا فـى الآونة الحاضرة، فإنه يتجدد بين حين وحين حول فرض حديث أو حول فروضه السـابقة، ولا اختلاف بـين أدلته فى الحالتين، وليس فى

(١) كتاب بين الكتب والناس للمؤلف.

كل مـا قيل من جانب المنكرين أو المتشـيعين مـا يفيد الحكم على أصالة شكسـبير كمـا فهمها التابعون له فى جيلـه من أبناء القرن السـابع عشـر، ولنا أن نفهم الآن كما فهموا أن شكسبير لم يكتب كل حـرف فـى مجموعته وأنها تحتـوى كلاما لغـيره، خطأ من جامعـى أعمالـه ورواياته أو تعمدًا من شكسـبير عند تمثيل بعض الروايات التى تعرض عليـه لتنقيحها وتهيئة بعض المواقف فيها للعـرض من جديد، ولا تزال هـذه الإضافات مفروزة على اختلاف بـين المجتهدين فى اسـتنباط الدلائل عليهـا، ولكنها قد تُحذَف من المجموعـة ويبقى للمجموعة بعد حذفهـا هيكلها الذى قامت بـه معجزة الشـاعر، ويبقى فى هـذا الهيكل موضـع الإعجاز إلى جانب مواضع الزلل والإسفاف التى لا يستغرب اجتماعها فى عمل شكسـبير ولا فى عمل غيره من العباقرة المعدودين، ولكن التفاوت هنـا كالتفـاوت بين أعضـاء البيئة الواحدة لا فرق بين محاسـنها ومعائبها فى الانتماء إليه، وقد تساعد المحاسن والمعائب معًا على التمييـز بين الصحيح والمنحول من مجموعـة الروايات والقصائد، حيثما أمكن تقرير «الطابع الشـخصى» الغالب على تفكيره وعاداته فى التعبير والأداء.

* * *